علم التعليم

ان اهم المسائل التي تشتغل بها الامَّة الانكليزيَّة الآن والتي يخشى ان تكون سبباً لسقوط الوزارة الانكليزيَّة الحاضرة مسألة التعليم . ولا عجب اذا اهتمَّت بها الامَّة الانكليزيَّة هذا الاهتمام لان مستقبل الامم يتوقف على تعليم ابنائها فالامَّة التي تعدُّ ابناءها للجهاد في ميدان الحياة بالتعليم والتهذيب تفوز على غيرها والتي لا تعدُّ ابناءها لهذا الجهاد تُهتَضَم حقوقها وتعيش اسيرةً لغيرها خادمةً لهُ

ومن المقالات الكثيرة التي انشأها كبار الكتَّاب في هذا الموضوع خطبة تلاها الاستاذ هنري ارمسترنغ رئيس قسم علم التعليم في مجمع ترقية العلوم البريطاني الذي التأم حديثاً في مدينة بلفست وقد لخصناها في ما يلي

ابتدأ الخطيب خطبتهُ بالكلام على تنذل العالم الطبيعي لعلاقة مكان الاجتماع بخطبة تندل الشهيرة التي خطبها لما كان المجمع مجتمعاً في بلفست واستشهد بعبارة قالها تندل يحقُّ ان تكتب على جبين الدهر بحروف من ذهب وهي ان كل نظام ليس فيهِ من المرونة ما يكفي لتنوُّعهِ على ما يقتضيهِ اتساع المعارف يكون نصيبهُ مثل نصيب الحيوان او النبات اذا لم يستطيعا ان يتنوعا على ما تقتضيهِ احوال المكان الذي يوجدان فيهِ. اي ان النظام الذي لا يستطيع ان يجاري العلوم العصريَّة يقضي على نفسهِ بنفسهِ سواء كان مذهباً دينيًّا او منهجاً سياسيًّا او اسلوباً صناعيًّا اذ لا بدَّ للناس من مجاراة روح العصر والاَّ تخلَّفوا عن غيرهم وسبقهم السابقون

وبنى الخطيب على هذه الحقيقة بناءً كبيراً في حث قومهِ على تغيير اساليب التعليم المتَّبعة عندهم والجري على مقتضيات العصر حتى يظنَّ من يقرأ كلامهُ ان الانكليز في الدرك الاسفل بين امم الارض وما ذلك الاَّ من باب المبالغة في النصح والتخوُّف من سوء المصير اذا لم يهبَّ قومهُ الى مسابقة كل الامم التي تبغي سبقهم لانهم اذا لم يكونوا اهلاً للمقام الذي هم فيهِ بين امم الارض لم يُسمَح لهم بالقيام فيهِ طويلاً فان مناظريهم الذين يغارون منهم كثار اقوياء وسنَّة الجهاد لاجل البقاء التي هي اول سنن الطبيعة تقضي بان "يبقى الانسب" ويزول ما سواهُ . قال اذا نشبت الحرب رأينا نتائجها حالاً مرأى العين رأينا اسماء القتلى والجرحى تكتب وتنشر واذا دارت الدائرة علينا علمنا اننا سندفع غرامة الحرب دراهم معدودات بل قناطير مقنطرة من الذهب. اما حرب الحياة فلا تنشب على هذه الصورة البتة ولا تكتب اسماء قتلاها وجرحاها وتُعرض على الانظار لكن ذلك لا ينفي انتشاب القتال ووقوع كثيرين فيهِ بين قتيل وجريح

بل قد لا يسلم احد من الامَّة المغلوبة في هذا الجهاد . والنجاة من الانغلاب ليست مما يتعذَّر نيلهُ اذا انتصحنا بنصح تندل وغاليلنا بالحياة ورفعنا مقام العقل . وان اكثر التقصير الذي نشكو منهُ ناتج عن ضعف تصوُّرنا او عن قلة تمرينا لقوى عقولنا واخراجنا تصوُّراتنا من القوة الى الفعل .. اذا التفتنا الى سسل رودس قال قصار النظر في العراقب انهُ انما كان رجلاً فعَّالاً يعتمد على العمل ويقود غيرهُ اليهِ لكن الذين هم اطول نظرًا منهم واوسع خبرةً يعلمون ان سسل رودس كان من ارباب الرأي والتدبير كان واسع التصوُّر بعيد النظر في العواقب ولذلك بلغ ما بلغ من النجاح . وكذلك لورد روبرتس ولورد كتشنر اللذان خدما الامَّة خدمة لا تقدَّر لم ينتج نجاحهما عن كونهما جنديين محنَّكين وبطلين باسلين بل السبب الاكبر لنجاحهما انهما بعيدا النظر حادَّا التصوُّر قادران على تطبيق العلم على العمل . والقوَّاد الذين ذهبوا الى هذه الحرب وهم يحتقرون القواعد العلمية عادوا منها بالخيبة والفشل

ثم استطرد الخطيب الى فائدة النظريَّات العلميَّة كنظرية نيوتن في الجاذبيَّة ونظرية دالتون في جواهر الاجسام ونظرية دارون في النشوء وقال ان الامور العمليَّة كلها مبنيَّة على الامور النظريَّة . وانتقد مدارس بلادهِ لان معلميها لا يجارون العلم الحديث اي لا يجرون على ما اكتُشف حديثًا في علم التعليم وكيفية نمو القوى العقلية وانمائها ولا ينظرون الى المطالب الكثيرة التي دعت اليها احوال الزمان وصار التأهُّب لها من اوجب الواجبات والزم ما يلزم على كل انسان

وانتقل من هذا التعميم الى التخصيص فبيَّن خسارة الامَّة من عدم فهم الوقَّادين والطباخين ونحوهم معنى القوة المذخورة في الفحم وكيفيَّة استعمالها حتى لا يتلف منها شيء . وخسارتها الكبرى من جهلها فوائد الطعام الحقيقية وكيفية اعدادهِ حتى يحصل منهُ اكثر نفع باقل ما يكون من النفقة . قال ان اعداد الطعام حتى يكون صالحًا من اهم الامور لان عليهِ تتوقف راحة الناس وصحتهم . والطبخ صناعة كيماويَّة بل هو فرع من فروع علم الكيمياء ويجب ان يتعلم بناتنا في المدارس ما يؤهلهنَّ لتعاطي هذه الصناعة او لادارتها بقليل من العناء . ولا اظن ان اهل الحل والعقد الذين في يدهم ادارة مدارسنا خطر ببالهم ان يدخلوا علم الطبخ في جملة العلوم التي تعلَّم في المدارس العالية او التي يمتحن التلميذات فيها بل اقتصروا على مسائل النحو والبيان وغوامض الهندسة والتاريخ حاسبين ان علم الطبخ احقر من ان يدخل دار المدرسة لكنهم مخطئون وعلم الطبخ من اهم العلوم واليكم ما يؤيد قولي وهو كلام قالهُ رئيس مدرسة كبيرة في خطبة لهُ على التعليم قال اننا نحن الانكليز نفتخر ببيوتنا ونتغنى بمدحها ونكتب في

وصفها ويحق لنا ان نباهي بها . فهل يخطر ببالكم ان المعنى الذي يفهمهُ اكثرنا من كلمة بيت هو الطعام الذي تأكلهُ في البيت هو الطبخ المتقن الذي تطبخهُ فان اتقان الطبخ يدعو الى الاقتصاد والصحة والراحة والمحبة . اذا عاد العامل الى بيتهِ مساءً خائر القوى من تعب النهار فالطعام الطيب المغذي يجدد قواهُ ويطيّب نفسهُ فيقوم الى العمل في اليوم التالي نشيطاً معافى والبيت هو المطبخ

ومن الغريب ان الذين يهدم ادارة التعليم لا يهتمون بامر الطبخ وتعليمهِ وغني عن البيان ان بناتنا لا يتقنَّ هذه الصناعة ما لم يتعلمنَ اصولها ويقرنَ العلم بالعمل وبالتفكير والتدبير

وانتقل الخطيب الى الكلام على العلوم الطبيعيَّة الامتحانيَّة كالفلسفة الطبيعيَّة والكيمياء وما يبنى عليهما وبيَّن لزوم هذه العلوم حتى للفلاَّح الذي يحرث الارض ويغرس الاشجار وقال انهُ يجب على كل احد ان يعرف الفوائد التي تجنى عن مباحث باستور الذي خلَّص نوع الانسان من بلايا كثيرة ويستحيل ان نعرف حقيقة علم الصحَّة وفائدة التدابير الصحيَّة والعمل بها ما لم نتعلَّم علم الميكروبات ونعلّمهُ في مدارسنا واذا علَّمنا اولادنا مبادئ العلوم الطبيعيَّة صاروا يرون في الطبيعة ما يسرُّهم ويسليهم في اوقات العطلة وابتعدوا عن كل ما يضرهم ولاسيما عن المسكرات فيقل ما يُشرَب منها في البلاد كلها . ولام حكومة بلادهِ لانها لم تأخذ برأي مجمع ترقية العلوم لما قرَّرت لجنة منهُ منذ سنة ١٨٦٧ انهُ يجب تعليم العلوم الطبيعيَّة في كل المدارس الابتدائية وكان الاستاذ هكسلي والاستاذ تندل والقس فرار والقس هشنسن من اعضاء تلك اللجنة وقال انهُ لو عملت الحكومة برأيها من ذلك الحين ما رأينا شيئاً من الخطإ الذي ارتُكب في جنوبي افريقية في الحرب الماضية ولا رأينا انفسنا مقصرين عن غيرنا في الحرب الصناعية الدائرة رحاها الآن ولا رأينا الفوز للالمانيين عيناً

وبعد كلام طويل على التعليم الحربي ونحوهِ انتقد لجان المدارس وقال انهُ يجب ان يكون في البلاد نظارة خاصَّة بالتعليم تكون مسؤولة لدى الامَّة ثم عاد الى ترتيب المدارس الابتدائية وما يجب ان يعلَّم فيها واشار باغراء التلامذة بالمطالعة الكثيرة ونقل ما قالهُ احد المشاهير وهو انهُ يجب ان يُرغَّب التلامذة في المطالعة بكل واسطة ممكنة وتوضع الكتب في طريقهم حتى يجدوها كيفما التفتوا دواوين الشعر وكتب السيَر واخبار الاعمال المجيدة والقصص التاريخيَّة وكتب الرحلات . ويجب ان يقرأوها بصوت عالٍ وان يتصفَّحوها جيداً لا ان يمرُّوا نظرهم على صفحاتها مرًّا . والذي يبتدئ بالمطالعة يواظب عليها ويستفيد من هذه الكتب اذا كانت منتقاة ومتدرّجة في لغتها ومواضيعها فوائد لا تقدَّر فيستنير عقلهُ وتزول السآمة من نفسهِ ويتعلم منها اللغة والتاريخ ومعرفة مواقع البلدان

واستطرد الى تعليم التاريخ والجغرافيا وقال ان اسلوب تعليمهما قبيح يقيّد العقل لان التلميذ الذي يقرأ درساً وجيزاً في صفحة من كتاب التاريخ يجد عقلهُ يدفعهُ الى قراءة غيرها الى ان يتم الفصل او الموضوع مختصرهُ في صفحة او صفحات تقييد لهُ عن التوسُّع وهو لا يطيق هذا التقييد فيجب ان نطلق الحريَّة للتلامذة ولا سيما للصغار منهم حتى يطالعوا كل ما تلذُّ لهم مطالعتهُ من الكتب التي نختارها لهم ويجب ان نرغّبهم في الرجوع الى الكتب والاستشهاد بها ولا سيما كتب المراجعة كالقواميس فانهم متى فعلوا ذلك وابنتَ لهم انك راضٍ عنهم وعن عملهم هذا جروا فيهِ وعُقد لهم النجاح

ويجب ان يرغّبوا في قراءة الطبيعة كما يرغّبون في قراءة الكتب فان للطبيعة كتاباً منشوراً يستطيع كل مَن في رأسهِ عينان ان يطالعهُ ويرى فيهِ فوائد لا تحدّ. ثم يعلَّموا بالتجارب العلميَّة خواص الاجسام وسنن الطبيعة . ولا يحسن ان يستعملوا كتب التعليم حينئذٍ بل يكفي ان يروا بعيونهم ويستنتجوا بعقولهم . والكتب الموضوعة للتعليم هي اقل الكتب فائدة لان مطالعتها لا تلذ لاحد ولا تفيد الاَّ مَن لهُ المام كثير بالعلم

وهنا دخل الخطيب في موضوع كبير الاهميَّة وهو نوع الكتب التي تفيد مطالعتها وظاهر كلامهِ ان هذه الكتب قليلة في اللغة الانكليزيَّة او غير موجودة فيها ويجب ان تؤلف من جديد . وان كان الانكليز يقولون ذلك فما نقول نحن وليس في لغتنا كتاب يصح ان نضعهُ في يد اولادنا الاَّ ما ندر

ولما فرغ من الكلام على القراءة تكلم على الكتابة وقال ان اولادهم يعجزون عن الكتابة لقلة المادة كما عجز بنو اسرائيل عن عمل اللبن من غير تبن . والقى اللوم على المعلمين لانهم لا يعلّمون التلامذة كيفيَّة التعبير عن افكارهم كتابةً بلغة فصيحة زاعمين انهم غير مقامين لتعليم اللغة بل لتعليم العلوم . (وماذا عساهُ ان يقول لو رأى مدارسنا وعلم ان معلميها انفسهم لا يحسنون كتابة سطرين بلغتهم) ولا يُحسب ان التلميذ فهم شيئاً فهماً صحيحاً الاَّ اذا قدر ان يعبّر عنهُ تعبيراً صحيحاً بلغة صحيحة . ومعلوم انهُ لا يُطلب من الصغار ما يُطلب من الكبار ولكن اذا دُرّب الصغار على التعبير عن افكارهم بلغة صحيحة مهروا في ذلك سريعاً على غير ما يُنتظر منهم . ويدخل تحت الكتابة الرسم فانهُ يجب على التلميذ ان يستطيع التعبير عن افكارهِ بالكتابة وبالرسم ايضاً

وذكر الخطيب بعد القراءة والكتابة علم القواعد الحسابية ثم تمرين العقل على الاستدلال المنطقي وقال انهُ يجب ان يكون متصلاً بكل العلوم فيُقضى وقت التلامذة في المدارس

الابتدائية في المطالعة وفي التجارب العلميَّة ووصفها بالكلام والكتابة واستنتاج النتائج العلميَّة منها

وانتقل من ذلك الى الكلام على تعليم المعلمين طريقة التعليم والى كيفية التعليم في المدارس العالية وقال انهُ يجب ان يوجَّه التعليم فيها الى تقوية العقل والتصوُّر والاستقلال في الافكار

وختم خطبتهُ بالكلام على المدارس الجامعة وقال ان نجاة الامة متوقفة عليها ولكنها لا تنجيها ما لم تكن عمليَّة واسعة النطاق وما لم يكن الغرض الاول منها تعليم التلامذة واعدادهم ليعلِّموا غيرهم

باب تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيهِ كل ما يهم اهل البيت معرفتهُ من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الوالدان

الكلام على الزوج والزوجة يوصل الى الكلام على الوالدَين فقد ابنَّا في الجزء السابق مقوِّمات الزوجة وفي الجزء الذي قبلهُ مقوِّمات الزوج اي الصفات التي يتَّصف بها كلٌّ من الرجل والمرأة حتى يكونا زوجًا وزوجة مستوفيين الصفات اللازمة للزوجيَّة . وسيكون الكلام في هذا الفصل على الصفات التي يجب ان يتَّصفا بها حتى يكونا والدَين مستوفيين حقوق الوالديَّة قادرين على تربية اولادهما التربية الصالحة . وهذه الصفات يكاد يعرفها كل مَن أُعطي فطنة كافية وراجع الاساليب التي يجري عليها والداهُ في تربيتهِ وما كانا يحسنان فيهِ وما كانا يسيآن فاتَّبع الاول واجتنب الثاني

قالت احدى السيدات في مقالة نشرت حديثًا في مجلة لندن ان الام الفاضلة هي التي تُعِدُّ نفسها لتكون مثالاً فاضلاً لاولادها وتصادقهم متى كبروا وتعاشرهم حتى يروها من اخلص الاصدقاء والصق العشراء

وقليلات من النساء يفتكرن في ما يجب ان تكون عليهِ الوالدة وكذلك قليلون من الرجال يهتمون ليكونوا من فضلاء الوالدين. ترى الوفًا من الشبَّان يبذلون كل مرتخص وغالٍ لكي تقوى ابدانهم ويتهروا في الصراع او ركوب الخيل او الصيد والقنص ولكن كم شاب يحرم نفسهُ الملاذ ويجتهد في تهذيب اخلاقهِ وتقوية جسمهِ لكي يولد لهُ اولاد اصحاء جسدًا وعقلاً .